التمثلات الدينية في كتاب الاعتبار لأسامة بن منقذ في عصر الحروب الصليبية

الباحثة زينب مهدي صالح أ.د. أحمد حياوي السعد

جامعة البصرة / كلية الآداب

Montada basrah86@yahoo.com

الملخص:

ولد اسامة بن منقذ في شيزر قرب نهر العاصي في حماة ، سنة (١٠٩٥) من سلالة بني منقذ الامراء ، في أسرة ورثت الفصاحة والعلم والدين والأدب ، عاصر القرن الاول من عمر الحروب الصليبية وعاش وسط المجتمع الشامي الذي يعتبر خليطا متنوعا من المسلمين والافرنج والارمن والروم والاتراك، راقب الناس عن كثب وسجل ملاحظاته عن سلوكهم في الدين وعاداتهم واعتقاداتهم في كتاب الاعتبار الذي كتبه وهو في سن التسعين ، فجاء على شكل مذكرات شخصية جمع فيها كل ما يخص سلوك وأفكار واعتقادات المجتمع في زمن الحروب الصليبية . ومن أهم الأمور التي سلط اسامة بن منقذ عليها الضوء هو معتقدات الدين والقسم وأصحاب الكرامات وفي ما يلي دراسة مفصلة عما تمثله لنا من صور في هذا الجانب.

الكلمات المفتاحية: (التمثيلات الدينية، كتاب الاعتبار، اسامة بن منقذ).

Religious representations in the book of consideration for Osama bin Munqith in the era of the Crusades

Researcher Zainab Mahdi Saleh dr. Ahmed Hayawi Al-Saad

Basra University / College of Arts

Abstracts:

Osama bin Munqith was born in Shayzar, near the Orontes River in Hama, in the year (1095) from the lineage of Banu Munqith al-Umra, into a family that inherited eloquence, science, religion and literature. He lived through the first century of the Crusades and lived among the Levantine society, which is a diverse mixture of Muslims, Franks, Armenians and Romans. And the Turks,

he closely watched people and recorded his observations about their behavior in religion, their customs and beliefs in the book of consideration that he wrote at the age of ninety. It came in the form of personal notes in which he collected everything related to the behavior, ideas and beliefs of society in the time of the Crusades. One of the most important matters that Osama bin Munqith sheds light on is the beliefs of religion, oath, and owners of dignity. What follows is a detailed study of the images they represent for us in this aspect.

Keywords: (religious representations, book of consideration, Osama bin Munqith).

١ – في بعض معتقدات الدين : لم يولِ أُسامة مسالة الجانب الديني عند الآخر المختلف عنه في الدين تلك المساحة الكبيرة او المهمة من كتاب الاعتبار ، لكنه استطاع ان يشخص لنا بعض السلوكيات والممارسات الدينية وطرق التفكير التي تجعل من ذلك الآخر اخرا يختلفُ دينيا عن الذات ويمكن القول بصورة عامة ان كل الذي اورده أُسامة في هذا الجانب يندرج تحت مستويات ثلاثة من التمثلات : الاول : انه يرى في دينه الافضلية على دين الآخر المختلف حتى لتبدو نبرة الاستعلاء في سرده الحكائي واضحة في هذا وهو ينقل لنا شعوره باصطفاء دين الاسلام على بقية الاديان وهو قليل جدا في نصوصه ، والامر الثاني : ذكره الحوادث والمواقف بلا تعليق ، عندما لا يجدُ ما يعارض دينه، او يمسه على الصعيد العام ، وكانه لا يمانعُ ان يمارسَ الآخر طقوسهُ الدينية اذا لم تشكل اي ضررا لعقيدته وموروثه الديني والامر الثالث : التزامه بثنائية الاصيل والدخيل عندما يتبنى مبدأ التفكير بعقل ال(نحن) العربية فيستهجن ويلعن ويدعو على ذلك المختلف في الدين . بقدر ما يتعلق الامر بشعوره العام بالإساءة لدينه، ومن تلك التمثلات ما نقلهُ لنا عن جارية كانت تعمل في بيت والده وكان لها ابن حسِن الخلقة ، قوي البنية ، فاسلم وحسُن اسلامه وتعلم تلاوته القران بأعذب صوت من قارئ

كان يقرا القران في دار والده ، فطال بقاء الشاب عندهم ، فزوجه والد أُسامة من امرأة صالحة فيقول (**زوجه الوالد امرأة من قوم صالحين وقام بكل ما احتاج لعرسه وبيته ، فرزق منها ولدين ، وكبرا وصار لكل منهما خمس، ست سنين ، والغلام راؤول ابوهما مسرورٌ بهما ، فأخذهما وامهما وما في بيته ، .. واصبح عن الإفرنج ، وتنصر هو واولاده بعد الاسلام والصلاة والدين ، ، فالله تعالى يطهر الدنيا منهم**) [١] ويتضح من دعاء أُسامة عليه بقوله (عسى الله يطهر الارض منهم) ان ما حصل يمثلُ نكبة على الصعيد الانساني والديني ، لأنه تنكر للدين ، وجحد نعمة اولي الامر، خاصة ان مدة اسلامه في دمشق كانت لسنين طويلة ، والملاحظ ان أُسامة اراد ان يخص الرجل بدعائه ولكن قصد جنس الإفرنج كلهم .ثم ان أُسامة في صفحات اخرى من كتاب الاعتبار يسوق لنا تلك الروايات التي تنصر اصحابها بعد الايمان . وجحدوا الدين وانكروه ، فينقل لنا رواية عن ابي مسيكة الذي تنصر في زمن الخليفة ابي بكر فوقع القتال بينهم وكان مالك الاشتر في جيش ابي بكر فيقول : **(برز مالك .. وصاح : يا ابا مسيكة ، ويحك يا ابا مسيكة ،بعد الاسلام وقراءة القران رجعت الى الكفر ؟ فقال : اياك عني يا مالك انهم يحرمون الخمر ولا صبر عنها)**[٢]

وحين يقرر أُسامة الذهاب الى بيت المقدس مع فرسان الهيكل الذين كانوا يسمون (الداوية) ، كان يشعر في ذاته ان الحياة المشتركة على هذه الارض قادرة على تصفية الخلافات ونبذ الصراعات والتعصبات ، وان الآخر المختلف عنهُ في الدين سيكون اقل تشنجا ما دامت فئاته الانسانية تخضع للظروف نفسها ، وربما لان موروث أُسامة الديني يخضع لقاعدة (لا نفرق بين احد من رسله) فانهُ يرى في ممارساتهِ الدينية في بيت المقدس بحضور الإفرنج حق مشروع لا يمكن لاحد ان

يسلبهُ اياه ، ولهذا يقول (**كنت اذا دخلت المسجد الاقصى وفيه الداوية اصدقائي يخلون لي ذلك المسجد ،الصغير اصلي فيه ، فدخلتُ وكبرت ، فهجم عليَ واحدٌ من الإفرنج مسكني وردَ وجهي الى الشرق ، وقال كذا صلِّ فتبادر اليهِ الداوية أخذوهُ واخرجوه ، .. وعدتُ انا للصلاة ، وعد هجم علي ...ورد وجهي الى الشرق وقال كذا صلِّ ..فعاد الداوية .. واعتذروا الي ... فقلتُ حسبي من الصلاة ..فخرجت وكنت اعجبُ من ذلك الشيطان وتغير وجهه ورعدته**)[٣] ولعل قدسية المكان فرضت على ذات أُسامة التزام الصمت مع ذاك المختلف في الدين ، او ان اعتبارات الصداقة بينه وبين فرسان الداوية في الهيكل جعلت أُسامة لم يبدِ اي ردة فعل تجاه الإفرنجي الذي امسك بوجهه واداره ناحية المشرق مكررا هذا الفعل معه مرات عِدة ، سوى انه ترك المكان ، وخرج ، وهو يخبرهم انه اكتفى من الصلاة

وتشتدُ غرابةُ الذات كلما اقتربت من مكان الآخر المختلف عنها دينيا ، فالمكان مسرح الحدث الذي يعيدُ انتاج الذات ويحكمها بأحداث الهنا والهناك [٤] ،ولهذا تتخذُ افعال الآخر في بيت المقدس فعلا دراميا مختلفاً عما كان يدور في ازقة الشام باعتباره مركز الإفرنج ومسرح احداثهم ، الذي دفع أُسامة للبراءة مما يعتقدون ، لأنه عاين افعالهم في عقر دارهم ، فوسمهم بالكفر لما تعارضت عقائده الدينية مع الآخر ، فهذا افرنجي في قبة الصخرة يسالهم ان كانوا يريدون رؤية الله صغيرا ، ؟ فيجيبونه بنعم ، فيأتي لهم بصورة مريم والمسيح صغيرا في حجرها فيقول (هذا الله صغيرا)، يعلقُ أُسامة على هذه الحادثة بقوله (**تعالى الله عما يقول الكافرون علوا كبيرا**) وواضح في تعليقه اصطدام عقائده بعقائد الآخر الذي لم يتوانى في وسمه بالكفر .

وفي تمثلات اخرى ينقل لنا أُسامة استغرابه واستهجانه لأفعالهم وهو يصور ولائهم الديني ، وحنينهم لبني جلدتهم فهو يصفهم بانهم جنس ملعون لا يألفون الا لجنسهم ، ولا يشعرون بالأمان الا على ارضهم وبين اهليهم ، ولعل اختلاف ثقافة الآخر الدينية التي تنعكس على سلوكه هي التي اجبرت تلك الجارية الإفرنجية ان تستبدل القصر بكوخ في قرية ، وتستبدل الملك بإسكاف ، فهي لم تستطع على وجه الخصوص التماهي مع هوية الآخر العربي المسلم الذي تفرض عليه عروبته واسلامه مبدئ التعامل مع الآخر المختلف في الدين تحت مسمى ملك اليمين ، او الجواري ، ويبدو استهجان أُسامة واضحا حين وصفهم بانهم جنس ملعون ، وربما (سيادة ايدولوجيا الطاعة تتطلب – بحكم كونها الحقيقة الوحيدة – تصفية الساحة من اي ايدولوجيات اخرى) [٥] فالمرأة في نظر أُسامة متامرة لأنها جحدت ما كانت فيه من نعم ، وتخلت عن ديار المسلمين . واستبدلتها بديار الكفر، كما املت عليه منظومته الدينية التي تبيح له التصريح بأفضلية دينه على بقية الاديان باعتبار ان (الدين عند الله الاسلام) سوغت له اقصاء الآخر فيقول : (**فصار الى دار والدي عدة من الجواري من سبيهم ،وهم جنسٌ ملعون لا يألفون لغير جنسهم ، فرآى منهم جاريةً مليحة شابة ،.....فسيرها الى الأُمير شهاب ... فولدت له ولدا ...جعله ابوه ولي عهده .. وتولى بدران البلدَ والرعية ، وامهُ الامرة الناهية ، فواعدت قوما ، وتدلّت من القلعة بحبل ، ومضى بها اولئك الى سَروج ، فتزوجت بإفرنجي اسكاف وابنها صاحب قلعة جعير**) [٦]

وحين نجتهد بالبحث عن الاشياء التي لم يصرح بها أُسامة عن ذاته سنجدها كامنة في رؤيته للآخر، ومقدار توافقه معه او استهجانه له واختلافه في وجهات النظر ، فحين ترى الذات ما يراه الآخرون وتتفق معهم فإنها تفكر بعقل الجماعة

ذلك (العقل الذي يكتسب بالتجربة المتجددة فعقل الفرد هو حصيلة تجربة جماعية تتلخص في عقله ، فالعقل عقول)[٧]ولهذا تتفق نظرة أُسامة الدينية في مفهوم جهاد الروم مع نظرة الشيخ الفندلاوي والحلحولي الذين عدا الروم والإفرنج شيئا واحدا يجب مقاتلتهم من منظور دينهم الاسلامي . والحال ان الروم هم اهل بيزنطة من اليونان والإفرنج هم الاوربيون الذين يدينون الكاثوليكية فيقول (**ومن الناس من يقاتل كما كان الصحابة رضوان الله عليهم يقاتلون للجنة لا لرغبة ولا لسمعة وفي جملتهم ، الفقيه الفندلاوي وعبد الرحمن الحلحولي وكانا من خيار المسلمين . فلما قاربوهم قال الفقيه لعبد الرحمن : اما هؤلاء الروم ؟ قال : بلى : ..قال : سر على اسم الله ، فتقدما ، فقاتلا حتى قتلا**)[٨] .

٢ــ في القَسَم :-

وترد بعضُ الفاظ القسم في كتاب الاعتبار من خلال الحوارات او السرد الذي ينقله لنا أُسامة عن الآخر المختلف او المتفق معه دينيا ، خاصة في تلك الأُمور التي تتطلب الزاما او عهدا مبرما ، تفصح عن اهمية ومراعاة القسم عندهم ، فالإفرنجي لا يجدُ حرجا من الزام ابو الفتح وهو الحَدّاد المسلم ب(اليمين المنعقدة التي الزمه [٩] بها ان لا يستوفي اجرا من الناس اذا علمه طريقة لعلاج ابنه من التقرحات ، ومن جهة اخرى يُظهر النص بعدا اخر من ابعاد التسامح الديني يشكل هوية انسانية غير مغلقة لذلك الإفرنجي الذي أخذ العهد على المسلم ان يفيد الناس بهذه الوصفة ولا يأخذ عليها اجرا ان علمه اياها لا من مسلم ولا من غير مسلم فيقول (**تحلف لي بدينك ان وصفت لك دواءً يبرئه لا تأخذ من احد تداويه به اجرة ؟، فحلف**) [١٠]

يصبح القسم مثيرا للاهتمام عند أُسامة اذا تيقن من صدق الآخر الذي اقسم له ، واثبت دعواه بالبرهان القاطع ، خاصة اذا كان صادرا عن رجل يشار الى صدقه وعلمه مثل النحوي الكبير الشيخ ابي عبد الله الذي اقسم لأُسامة انه لم يكتف بقراءة كل هذه الكتب فحسب حفظها عن ظهر قلب وحين يرى دهشة أُسامة وعدم تصديقه لان ذلك فوق قدرات البشر يطلب من أُسامة ان يتأكد من صدق دعواه بان يفتح اية صفحة والنحوي يقرأها عليه ، فيقول (**قلت يا شيخ قرات هذه الكتب كلها ؟ قال : قراتها ؟ لا والله الا كتبتها في اللوح وحفظتها ، تريد تدري ، خذ جزءا وافتحه واقرا فأخذت وفتحته وقرات منه سطرا ، فقرا الصفحة بأجمعها حفظا حتى اتى على تلك الاجزاء جميعها ، فرأيت امرا عظيما ما هو في طاقة البشر**)[١١]

ممارسات دينية اخرى :

ينقل لنا أُسامة من ضمن ممارساتهم الدينية التي كانت تشكل مصدر فخر بالنسبة للمسلمين قضية فك الاسير لأنها تعتبر من عادات المسلمين التي حرص عليها الدين الاسلامي ، وراعى حقوقها ، وقد كان اصحاب النفوذ و الاموال يتنافسون في فك اسارى المسلمين وكانت جهودهم في عتق الاسارى تأخذ طابعين الاول سياسي وهو التفاوض والمشاورات وفدية الاسرى بالمال او بالأنفس من اسرى الطرف الآخر ، والثاني عسكري ويتم بشن الغارات والحروب والهجمات لتخليص الاسرى (وقد راسل اهل انطاكية في فك صاحبهم بوهمند مقابل مال جزيل واسرى عندهم فأفتى الفقهاء في ذلك ، فقال قوم منهم يقتل ، وقال اخرون يفادى ، فمال نور الدين الى الفدية ، وذلك لسلامة اسرى المسلمين وتحريرهم من ايدي الفرنجة ، فأخذ منهم ستمائة الف دينار معجلا وخيلا وسلاحا واسرى كثيرون لم يعرف عددهم)[١٢] كثيرا واسرى مسلمين ابتغاء وجه الله تارة ، او ايفاء للنذر تارة

اخرى ويذكر ابن جبير في رحلته عن نور الدين زنكي انه نذر في مرض اصابه تفريق اثنا عشر الف دينار لفكاك اسرى من المغاربة فلما شفي ابر ب نذره [١٣] ويذكر أُسامة ان له يد في فك اسارى المسلمين فكان يشتري من سهل الله خلاصه منهم فيقول **(فكنت اشتري منهم من سهل الله خلاصه ، فخرج شيطان منهم يقال له كليام فأخذ مركبات فيه حجاج من المغاربة نحو اربعمائة نفس ، رجالا ونساء فكانوا يأتون مع مالكيهم فاشتري منهم من قدرت على شراءه ،** [١٤]) ويبدو انهم كانوا يتقاسمون الاجر بينهم لخلاص اسرى المسلمين فكان أُسامة يعرض على نور الدين ان يدفع ثمنهم لأنه كان قد خصه بهم وان شاء دفعه هو بدلا من الأُمير ، فكان الأُمير يقول له اترك لي من ادفع ثمنه فيقول **(وجئت فقلت للأمير معين الدين ، قد اشتريت لك اسارى اختصك بهم وما كان معي ثمنهم .. ان اردت وزنتَ ثمنهم والا وزنته انا .؟ قال: لا بل انا ازن والله ثمنهم ، وانا ارغب الناس في ثوابهم)**[١٥] يحمل لنا أُسامة تصوراته عن فرق الاسماعيلية التي تسكن اعالي جبال شيزر وبالرغم من انهم من فرق المسلمين لكنه يعيب عليهم طريقتهم في الغلو لشيخ الجبل فهو يوضح لنا ان في شيزر شيخ يطيعه اهل الجبل حتى كاد ان يعبد من دون الله ويتضح ذلك من ايراده صيغة المفعول من الفعل تعبد ، كما ان الاطار الاجتماعي الذي تفرضه البيئة المشتركة مع الإسماعيليين مكنت أُسامة من فهم ذلك الآخر الذي يختلف عنه بالتعاطي مع قيم الدين فهو يعرف مسبقا ان الإسماعيليين معروفون بالولاء لزعيمهم وطاعته الطاعة العمياء واغلبهم كان من اكراد الجبل ومن سكان الجبل الاصليين في دمشق الذين يمكن السيطرة عليهم دينيا [١٦] فيقول **(فخرجنا.. ومعنا رجالة من اهل شيزر فيهم غلام للمُتَعَبَد الذي كان يطيعه اهل الجبل وكاد ان يعبد)**[١٧]

ويكشف أُسامة لنا نصا اخر عن اعتقادات المسلمين وايمانهم بتدخل المشيئة والحكمة الالهية ، اذا عز النصر. وقل النصير، ونحن امام فئة قليلة من المسلمين يقابلها فئة كبيرة من الاعداء المتفوقين بالعدة والعدد تجعل النصر امرا غاية في الصعوبة ، يرصفُ لنا أُسامة صورة الآخر الإفرنجي في هذا النص وهو يبوء بالهزيمة والخذلان فتجري مشاهد الحرب بتدبير الهي محض يجعل من الآخر انسانا منزوع الارادة يرمي اسلحته ويسقط في الماء فيغرق ، بينما ينجو حصانه ، وينهزم من سلم منهم خارج الحصن . ان اختيار أُسامة لهذا المشهد يعلنُ اتحاد ذاته مع حقيقة المسلمين القرآنية ضمن دستور لا يحيدون ولا يميلون عنه . سيبُرر النصر للمسلمين والهزيمة للإفرنج بفرضية واحدة لا ثاني لها وهي ان الله قد القى الرعب في قلوب الاعداء لينصر عباده الصالحين في لحظة المواجهة تلك فيبعث جيش الرعب يقاتلهم بالنيابة . في صورة يتفق عليها وعيهم الاسلامي ويكثفها ايمانهم المطلق بقوله تعالى (سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا اشْرَكُوا بِاللهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانا وَمَأْواهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ)[١٨] وكشف لنا أُسامة هذا المعنى عندما يكثف مشاهد خيل الإفرنج وهي تحيط بحصن الجسر في شيزر مع انهم في هدنة معهم وهذا يعني انهم لا يحصنون مداخلهم ولا يغلقون طرقهم ولا يتقلدون عدة الحرب ما داموا في فترة السلم والهدنة ، لكن الإفرنج لا عهد لهم دخلوا عليهم عبر الجسر وعبروا الماء احتلوا الدور وعلموا برسم الصليب على البيوت وركزوا راياتهم عليها ولم يلقوا مقاومة تذكر ، وكان كبار بني منقذ خارج المدينة فيقول (**فلما اشرف ابي وعمي ، على الحصن ، كبر اهل الحصن وصاحوا، فالقى الله سبحانه وتعالى على الإفرنج الرعب والخذلان ، فذُهلوا عن الموضع الذي عبروا منه ، ورموا خيلهم ، وهم بدروعهم عليها ، في غير مخاض**

، فغرق منهم جماعة كثيرة كان الفارس يغوص في الماء فيسقط عن سرجه ويرسب .ويطلع الحصان ومضى من سلم منهم منهزمين . لا يلوي بعضهم على بعض وهم في جمع كثير وابي وعمي معهما عشرة مماليك صبيان)[١٩] .

٣ــ في الاعتقاد بالكرامات :-

في باب خاص افردَ في الاعتبار ، يؤسس أُسامة عالما اخرا من الخوارق والمعاجز لرجال صالحين قدم لنا صورهم بصفة دينية خاصة . بدوا فيها فوق قدرات البشر ، ودون مستوى الانبياء ، وهو يسقط ما تمثلته ذاته الاسلامية عن ذلك الآخر المختلف بالطقوس والممارسات حتى عن بني طائفته نفسها ، ويبدو ان أُسامة لا يركز على نقل ما هو خاص عن ذلك الولي بقدر ما يركز على نقل كراماته وما يقع على يديه من معجزات وكرامات دون ان يدعي صاحب الكرامة ذلك، ويستمد أُسامة ايمانه بكرامات الصالحين والاولياء من موروثه الديني في القران الذي يحيلنا الى عشرات النصوص التي تؤكد وقوع المعاجز على ايدي الصالحين والاولياء من امثلتها ما جاء في خبر السيدة مريم ، او اصحاب الكهف ، او ما جاء في خبر السيدة سارة زوج النبي اسماعيل ، او اخبار الخضر وموسى وغيرهم والكرامات بأبسط صورها تعني : امر خارق للعادة ، تقع على ايدي الصالحين والاولياء ، ولا تبلغ درجة المعجزة ، ولا تتساوى معها اطلاقا ، وربما تقع الكرامة للصالحين دون ان يعلموا بها [٢٠] ويراها أُسامة منحة الهية ودرجة رفيعة لمن توفرت به شروط العلم والزهد وصوم الدهر وقلة الاقبال على الماء والزاد فيقول **(كان في مسجد الخضر... رجل من الاولياء ...ثم نزل في زاويته وانا ازوره ، وكان عالما زاهدا وما رأيتُ ولا سمعتُ بمثله كان يصوم الدهر ، ولا يشرب ماء ، ولا يأكل خبزا ولا شيئا من الحبوب ، ... ويأكل في الشهر مرة او**

مرتين لقيمات من لحم مقلي)[٢١] **ويروي** لنا أُسامة ما شاهده من كرامات حصلت امام مسمعه ومراه باعتبار قرب بيته من بيت الرجل حين حضرته الوفاة كان يتمنى على الله ان يتولى غسله وتكفينه احد شيوخه وهو من رجال الطريقة الصوفية فيقول **(فلما حضرته الوفاة قال : كنت اشتهي على الله تعالى ان يحضرني شيخي محمد البُستي ، فما جمع له جهاز غسله وكفنه الا وشيخه ..عنده فتولى غسله وخـــرج خلفه تقَدَمَنا للصلاة صلى عليه)**[٢٢]

وتعد هذه الرواية الوحيدة التي ينقلها عن معايشة ومشاهدة اما بقية الروايات فيمكن ادراجها تحت توارد الاخبار والرواية عن طريق بعض الرجال الثِقات الذين لا يشك أُسامة بأمانتهم وصدقهم ، فيوردها عنهم دون تعليق او تحليل عدا انه يذيل بعضها عبارات التسبيح او التحميد وان دل هذ على شيء فإنما يدل علـــى ايمـــان الذات المطلق بعالم الآخر الديني الخارق للعادة ، وابتعادها عن منطق التشكيك او المناقشة ، ومع ان من يقرا كتاب الاعتبار بتمعن شديد لا يجد هذا الرابط المنطقي بين ما اورده أُسامة في هذا الباب من كرامات الصالحين وبين ما نقلـــه لنـــا مـــن حروب وقتال وما عرضه لنا من اخبار الحياة الاجتماعية والسياسية ، والاقتصادية ، والتبرير المنطقي لذلك ان طرف اخبار الصالحين قد الحق بالكتاب الحاقا ، لأنه تضمن اخبارا وروايات في ازمان مختلفة ، عن اشياء مختلفة ، وسلط الضوء على مناح متعددة من الحياة ، وبما ان اللجوء لأصـــحاب الكرامـــات والتوســـل بهـــم والايمان بالخوارق والمعجزات كان احد سمات هذا العصر فلا باس مـــن الحـــاق طرف اخبار الصالحين بالكتاب ، اضافة ، الى انه يعد وثيقة تاريخيـــة مهمـــة تكشف لنا عن هوية أُسامة المعتدلة التي لا تميل الى طائفة على حساب اخـــرى، فهو لم يثبت عبر ما تركه من تراث ادبي انه من الطائفة الشيعية او السنية بـــرغم

ما اورده اصحاب التراجم والسير انه فيه تشيع[٢٣] ، لكن هذا غير ثابت بالجزم المطلق ، فقد اورد كرامات الامام علي ع وكتب المدائح في اهل البيت كما لخص مناقب الخليفة عمر بن الخطاب وكان في جيشه الفقيه الحلحولي وعبد الرحمن الفندلاوي وهو يصفهما بانهما من خيار المسلمين وهما على مذهب المالكية كما إنه قد، تلقى علومه على يد بعض مشايخ السنة ، بينما يذكر في الاعتبار انه صلى الظهر قصرا وجمعا ، وعلى اية حال فالرجل ربما كان عامدا الى عدم اظهار هويته بحكم علاقاته بالفاطميين من جهة وبالسلاجقة من جهة اخرى الفرقاء الذين بقيت صورتهم متنافرة ومتناقضة ، ولم يحدث بينهما تقارب حتى في الوقت الذي دنا فيه الخطر الصليبي من الشام فقد اتخذ الصراع بين هذه القوى الاسلامية طابعا فكريا كان اكثر حدة من الصراع السياسي وربما الديني مما جعل النفوذ الفاطمي القائم على دعوة ودولة في ان واحد غير مقبول لدى الغالبية من اهل الشام ، الذين حافظوا على انتماءهم للدولة العباسية والدويلات التابعة لها ، بصورة مباشرة ا و غير مباشرة ، ولقد كان هذا الصراع الامر الاكثر خطورة في تزعزع جبهة الشام وعدم صمودها امام المد الصليبي [٢٤] وقد نوهت الباحثة مسبقا ان أُسامة الذي يتمتع بدوبلوماسية عالية نحج في كسب ود الآخرين وثقتهم ، فقد لعب دورا مؤثرا في المحافظة على صورة الوسيط بين الفرقاء من اصحاب النفوذ والمناصب ، فهو رجل سياسة وسفارة عرف كيف يتجاوز الحدود المذهبية فلم يلق صدا من الشيعة الفاطمية ، ولا نفورا من السلاجقة السنة ولهذا ذكر من طرف اخبار الصالحين من الفريقين ،

اعتمدت اخبار أُسامة في هذا الجانب على مجموعة من الخوارق التي نقلت اليه عن طريق السماع من الرجال الذين يركن لأماناتهم ويعتمد اقوالهم وهذا يدل على ان حلقات السمر والاحاديث الليلية كانت تتخذ من اخبار الصالحين وكراماتهم

والخوارق السريعة مادة تشكل اللبنة الاساسية للتفكير العربي خاصة بعد موجة الاستعمار الصليبي ، الذي حدا بالعربي ان يجد متنفسا يفرغ به ما مر به من ويلات ويهتدي الى عصا سحرية تختصر عليه ما يمكن ان يجهده ويؤلمه ، فشاعت الكرامات وتعددت وتناقلتها الالسن واثبتها المصدقون ودونوها ، وقد حمل لنا كتاب الاعتبار طائفة متنوعة من اخبار الكرامات تنوعت الخوارق فيها تبعا لتنوع قدرة اصحابها الخارقة في تحقيق المعجزة وهي :

اولا : كرامات الامام علي عليه السلام : وتركزت على القدرة في شفاء الامراض بلا علاج وعن طريق الرؤيا وفيها يذكر روايتين الاولى يحدثه بها شهاب الدين ابو الفتح المظفر ، من الموصل تتلخص في زيارة المقتفي بالله لمسجد في ظاهر الانبار يعرف بمسجد علي ع وفيه قيم في وجهه سَلَعة والسلعة هي الشق او الشجة في الوجه وقد غطت اكثر وجهه فاذا اراد الاكل شدها بمنديل ، وكان المقتفي يتردد لهذا المسجد ، ويرى السلعة في وجه القيم ، فساله عنها وكيف اختفت ؟ فأجابه انه لقي شخصا من الانبار وقد اخبره ان يقصد مقدم الانبار بدل من قصده هذا المسجد ، فلحق قلب صاحب السلعة من كلام الرجل هما كثيرا ، ولما نام ، رآى امير المؤمنين علي ع ، فيقول **(رأيت امير المؤمنين علي بن ابي طالب في المسجد وهو يقول ما هذه الخضرة ، فشكوت اليه ما بي ، فاعرض عني ، ثم راجعته شكوت اليه ما قاله لي ذلك الرجل ، فقال انت ممن يريد العاجلة ثم استيقظت والسلعة مطروحة الى جانبي وقد زال ما بي ، فقال المقتفي صدق)**[٢٥] تتضمن الرواية اللجوء بقلب صادق لأصحاب الكرامات ، وقد نقل لنا أُسامة من كرامات الامام ع قدرته على قضاء حوائج الناس ، واثمن الحاجات هي الصحة ، فتوسل الرجل بعلي ع وشكواه اثبتت ازالة العارض الذي لقي رمنه الرجل تعبا وهما

شديدا ، وهذا الكلام لا يتقاطع مع صورة المنقذ الذي يكون سببا بشفاء الفقاع الـــذي اشار اليه أُسامة بانه من شيعة علي في راوية يذكر فيها انه كان جالسا مع محمد بن علي بن مامة في احدى دكاكين الموصل ومر بهم رجل فقاع ضخم الجثة ، وقد ناداه محمد ليروي لأُسامة قصته ، ويبدو ان الحديث الذي كان يدور بين محمد بن علـــي وبين أُسامة كان يخص الكرامات ، ومن جهة اخرى ان استدعاء محمد للرجل الفقاع وطلبه ان يروي لأُسامة حكايته بنفسه ، فيها اشارة الى ان أُسامة لا يصدق كل مـــا يقال ، او ما يسمع عنه من أُسامة به سببا قويا لينقل لنا بـــدوره هـــذه الروايـــة ، وتتلخص بان الفقاع هذا قد يبست رجلاه وانحل وسطه ، ولم يعد يقو على الحركـــة حتى نقلوه الى الاطباء الذين احضروا مسمارا واحموه وكووا به رجله ، فما شعر ، يقول أُسامة (**فقالوا ما نقدر على دواء هذا ولا فيه حيلة فبقيت على ما انا عليه الى ليلة رايت فيها رجلا ، وقف علي وقال : قم ، قلت من انت ، قال انا علي بن ابي طالب ، فقمت وقفت ، فأنبهت امراتي ، وقلت ويحك ، قد ابصرت كذا وكـــذا ، فقالت : ها انا انت قائم ، فمشيت على رجلي وزال ما كـــان بـــي ورجعـــت كمـــا تراني)**[٢٦]

ثانيا: كرامات القدرة على اختصار المسافات : وتتلخص في ايمان الـــذات بقدرة صاحب الكرامة على احضار اشخاص من مسافات بعيدة بلا وسائل نقل وفي زمن قياسي، فعن قاضي القضاة الحموي انه اخبر أُسامة انه يحب اهل الكوفة لرجل واحد منهم فقد كان شابا بحماة وصادف ان عبد بن ميمون الحمـــوي ، اوصـــى اهله انه اذا مات ان يخرجوا به الى الصحراء ، فيطلع انسان علـــى الرابيـــة التـــي تشرف على المقابر. وينادي يا عبد الله بن قبيس ، مات عبد الله بن ميمون ، فمـــات وفعلوا مثلما اوصاهم ، فطلع عليهم رجل عليه مئزر صوف وثوب خام ، وواضح

من كلام قاضي القضاة انه من اهل الكوفة من الجانب الذي نادى منه المنادي فغسله وكفنه وصلى عليه يقول أُسامة (**فاقبل رجل عليه ثوب خام ، ومئزر ، صوف من الجانب الذي نادى منه المنادي وجاء حتى صلى عليه والناس قد بهتوا لا يكلمونه فلما فرغ من الصلاة انصرف راجعا من حيث جاء ، فتلاوموا ، اذ لم يمسكوا به ، ويسالونه فسعوا في اثره ففاتهم ، ولم يكلمهم كلمة واحدة ،)**[٢٧] واضح ان صاحب الكرامة هذا قد اختزل زمن المسافة ، فالزمن قياس الحركة والحركة لا تتم إلا في المكان ، وحقق وصية بن ميمون ، مع كرامة اخرى لازمته ايضا وهي تفاوت قدرات الناس العاديين الذين حاولوا اللحاق به وسؤاله ، لكنه لم يلتفت اليهم وعاد يطوي الارض كما جاء ، فالزمن قياس الحركة والحركة لا تم إلا في مكان ، ويركز أُسامة على الزي الذي كان يرتديه وهو الثوب الخام والمئزر الصوف ثم النداء من جهة الرابية التي تشرف على المقابر كلها تدل على ان الرجل كان من اهل الكوفة ، وهو ذو كرامة ومعجزة جعلته يسمع النداء وهو في الكوفة والميت بالشام فطويت له الارض طيا .

ثالثا: الكرامة عن طريق كشف المجهول في المنام : تتلخص في كرامات الآخر الذي ينكشف له المجهول وهو نائم عندما يهديه الرسول صلى الله عليه واله وسلم في المنام الى اخر يخصه الله تعالى ليقضي حاجته على ان يعطيه علامة منه ، ومثل ذلك ما نقله لنا أُسامة عن خواجا برزك ان شيخا من بلدة غزنة استأذن في الدخول عليه ، فأذن له ، فقال الشيخ للسلطان ، انا رجل فقير ولي بنات لا اقدر على تجهيزهن وتزويجهن ،فنمت ليلة الجمعة ، ودعوت الله بمعونتي عليهن ان يرزقني ، ما اجهزهن به ، فرأيت رسول الله فيما يرى النائم ، فقال لي ، انت تدعو الله ان يرزقك ما تجهز به بناتك ، قلت : نعم يا رسول الله ، قال امض للسلطان وقد

سماه بعز الدين ملك شاه ، وقل له قال رسول الله جهز بناتي ، فقلت وان طلب مني علامة يا رسول الله ماذا اقول له ؟ فقال ، قل له : انك كل ليلة تقرا سورة تبارك ، ويبدو ان السلطان كان يقرأها بينه وبين نفسه دون علم احد من البشر ، كما ان النص يوضح لنا جزء من التقاليد الاجتماعية السائدة في مناطق غزنة التي تقع في اطراف خراسان ، في الحد الفاصل بين خراسان والهند ، ويبدو ان جهاز النساء من اثاث ومقتنيات للزواج يقع على عاتق اهل الزوجة ، وهو تقليد متبع حد الساعة في هذه المناطق التي تمثل افغانستان حاليا ، فيقول : **(فلما سمع السلطان ذلك قال هذه علامة صحيحة وما اطلع عليها غير الله تبارك وتعالى ، فان مؤدبي امرني ان اقراها كل ليلة ، عند النوم وانا افعل ذلك ثم امر له بكل ما طلبه لتجهيز بناته واجزل عليه العطاء)**[٢٨]

الخاتمة (نتائج وتوصيات):

نستنتج مما سبق ان الشعوب والأقوام التي عاصرها أسامة تختلف من حيث سلوكها الديني ووجهات نظرها في العقيدة ، لكنه مع ذاك استطاع أن يجمع لنا صورا متعددة من سلوكيات الأديان المختلفة اعطت نموذجا واضحا عن سلوكيات ومعتقدات المجتمع كما انها صورت لنا الآخر المختلف دينيا وعقائديا ووضحت طرق التعامل في مجتمع متلون الاطياف ، وبينت ما تمتع به أسامة من انفتاح ودبلوماسية .ويمكن أيجاز أهم النتائج في هذا المضمار بما يلي :- ١- لقد عرض أبن منقذ في هذا الجانب مجموعة من السلوكيات والاعتقادات والعادات الدينية التي كانت تسود المجتمع الشامي والمصري ، وقد استحسن ما كان ينسجم مع منظومته الدينية والخلقية ، وابعد ونقد ما كان غير متوافق مع اعتقاداته كمسلم ، ٢- لا نجد أن أسامة في استعراضه الجانب الديني في كتاب الاعتبار قد حاول إلغاء الآخر أو

الاساءة إليه ما دام الآخر يحترم ما يدين به اسامة وهو الدين الاسلامي . فنجده يفسح المجال لممارسة طقوسهم دون المساس بها وتفكيره هذا متقدم على عصره بكثير ، ٣- حاول أسامة وهو يسلط الضوء على الممارسات الدينية في المجتمع الشامي ان لا يركز على فروض العبادات او الطقوس المتوارثة بقدر ما ركز على سلوكيات دينية لا تمس العقائد الجوهرية ، كالفروض والطقوس الخاصة و ولكن سلط الضوء عاما ليقتطع صورة سريعة وعامة عما كانت تدين به الاقوام أبان الحروب الصليبية وخاصة تلك التي عاصرت الحملة الصليبية الاولى .

الهوامش :

(١) الاعتبار : ٢١٨
(٢) الاعتبار : ٩٩
(٣) نفسه : ٢٢٣
(٤) ينظر اللا انتماء بين المكان الاول والمكان الآخر ، قراءة في حتى اتخلى عن فكرة البيوت ، أيمان مرسال ، مجلة فصول ، ع ٩٤، ٢٠١٥، ١٢٢
(٥) سؤال الهوية : شريف يونس ، ، ٦٩
(٦) الاعتبار : ٢١٨
(٧) مفهوم العقل : ،عبد الله العروي : ٣٦٠
(٨) الاعتبار : ١٧٤
(٩) ينظر : القسم دراسة موضوعية قرآنية ، أيمان ابو صنوبر ، مقال منشور على موقع شبكة الألوكة الالكتروني ٢٠١٢
(١٠) الاعتبار : ٢٢٢
(١١) نفسه : ٣١٨
(١٢) جهود المسلمين في تحرير اسراهم : مروج حسن داود ، رسالة ماجستير اشراف . د، خالد حسن ، ٢٠١٠ ، ٦٦
(١٣) ينظر : رحلة ابن جبير : ٢١٤
(١٤) الاعتبار : ١٥٧
(١٥) نفسه : ١٥٨
(١٦) ينظر: الفرق بين الفرق : ٢٨٢
(١٧) الاعتبار : ١٩٠
(١٨) ال عمران : الآية ١٥١
(١٩) الاعتبار : ٢٤١
(٢٠) ينظر : جامع كرامات الاولياء ، يوسف بن اسماعيل النبهاني ، تحقيق ، ابراهيم عطوة عوض ، ١٦

(٢١) الاعتبار : ٢٧٤
(٢٢) نفسه : ٢٧٣
(٢٣) ينظر: شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ٢٧٩
(٢٤) ينظر : تاريخ بلاد الشام اشكالية الموقع والدور في العصور الاسلامية : ابراهيم بيضون ، ٢٣٧
(٢٥) الاعتبار : ٢٧٦
(٢٦) الاعتبار ٢٨٠ ، ٢٨١
(٢٧) نفسه : ٢٧٢، ٢٧٣
(٢٨) الاعتبار : ٢٧٨

المصادر والمراجع :-

- القرآن الكريم
- الاعتبار ، أُسامة بن منقذ ، تقديم وتدقيق ، عبدالكريم الاشتر المكتب الاسلامي ، ط٢، ٢٠٠٣
- تاريخ بلاد الشام اشكالية الموقع والدور في العصور الاسلامية : ابراهيم بيضون ، دار المنتخب العربي للدراسات والنشر ، الاسكندرية ، ١٩٩٧.
- جامع كرامات الاولياء ، يوسف بن اسماعيل النبهاني ، تحقيق ، ابراهيم عطوة عوض ، المكتبة الثقافية ، بيروت ، ج،١، ١٩٩١.
- جهود المسلمين في تحرير اسراهم : مروج حسن داود ، رسالة ماجستير اشراف ، د. خالد حسن الخالدي ، جامعة بسكرة
- رحلة ابن جبير ، محمد بن جبير، دار الكتاب اللبناني ، ط١ بدون سنة نشر
- سؤال الهوية : شريف يونس ، المكتبة الوطنية ، القاهرة ، ط١، ١٩٩٩
- شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ابن العماد عبد الحي بن احمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي ، دار ابن كثير القاهرة ، ط١، ١٩٨٦
- الفرق بين الفرق : عبد القاهر بن طاهر بن محمد البغدادي ، تح ، محمد محيي الدين حميد المكتبة العصرية ، ط١، بيروت ، ١٩٩٥

- القسم دراسة موضوعية قرآنية ، ايمان ابو صنوبر ، بحث منشور على موقع شبكة الالوكة الالكتروني، ٢٠١٢
- اللا انتماء بين المكان الاول والمكان الآخر ، قراءة في حتى اتخلى عن فكرة البيوت ، أيمان مرسال ، مجلة فصول ، ع ٩٤، ٢٠١٢
- مفهوم العقل : ،عبد الله العروي : منشورات المركز الثقافي للكتاب ، المغرب، ط١، ٢٠١٧